واقعٌ أكثر مما يُحتمل دفعةً واحدة

FERDINANDO FREGA · GILLETTENARRATIVE · GILLETTEVATICANO · 11/17

سمّوني مجنوناً. أكثر من مرّة. أحياناً لأنّني كنت أفكّر أكثر ممّا ينبغي. وأحياناً لأنّني كنت أشعر أكثر ممّا ينبغي. وأحياناً لمجرّد أنّني كنت أرى الأشياء من زاويةٍ مختلفة.

مع الوقت أدركت أنّ الجنون كثيراً ما يكون التسمية التي نمنحها لما لا نستطيع تصنيفه.

إنّها الأداة نفسها التي استعملها الهيكل. امنحه تصنيفاً. جِد له تسمية. حوّل الرجل إلى نسخةٍ أدنى ممّا تعرفه سلفاً. الكلمة تتغيّر مع القرن. أمّا الوظيفة فلا.

ومع ذلك ثمّة جنونٌ يولد من فرط الحساسية. من فرط التساؤل. من عجزٍ عن قبول السطوح بلا عمق.

الجنون غرفةٌ يجري فيها الفكر أسرع من اللغة. حيث تصل المشاعر كلّها دفعةً واحدة. حيث لا يستطيع القلب أن يغلق أبوابه.

من يمرّ بها لا يخرج منها كما دخل أبداً. لأنّه رأى شيئاً. وما رُئي لا يمكن أن يعود غير مرئيّ.

كثيرون يظنّون أنّ الجنون نقيض الذكاء. أنا غير مقتنع. أحياناً هما قريبان. وأحياناً يكون الجنون ذكاءً بلغ حدّه الأخير. النقطة التي لم يعد فيها ممكناً احتواؤه. حيث يرى صلاتٍ أكثر ممّا ينبغي. ومعاني أكثر ممّا ينبغي. وواقعاً أكثر ممّا يُحتمل في الوقت نفسه.

وحين يحدث ذلك، لا تعود اللغة تكفي. ولا يبقى سوى الإيماءة — أو الصمت — مترجماً ناقصاً.

هذا نصف الغرفة. منظوراً إليه من الخارج، هو إفراط. ومنظوراً إليه من الداخل، هو شيءٌ آخر تماماً.

ثمّة أرضٌ لا يعرفها إلا قليلون. تقع بين الفوضى والوضوح. بين الجرح والفهم. بين الانهيار والولادة الجديدة. أسمّيها الجنون الواعي.

هناك تصير الصلات مرئية. تسقط الأقنعة. وتبدأ التفاصيل بالكلام.

من الصعب شرحه. من لم يجرّبه قطّ يخلطه بالارتباك. وفي الحقيقة هو العكس. إنّه فرط وضوح. واقعٌ أكثر ممّا يُحتمل يُلاحَظ دفعةً واحدة.

من يعيشون في الجنون الواعي ليسوا تائهين. هم ببساطة يسافرون في أماكن لم يبلغها الآخرون بعد.

مرّةً زرنا زبوناً لم يكن يدفع في موعده أبداً. تأخّراته كانت تعيده باستمرار إلى قائمة الحسابات المتأخّرة. حتى مدير الائتمان تدخّل. كان قادماً من ميلانو. أكثر تحليلاً. أكثر عقلانية. أقلّ عاطفة. ومع ذلك لم يكن الزبون يصغي.

مرّ الوقت. وفي يومٍ ما التقيته من جديد. قلت له:

«تهانيّ. لم يعد اسمك على قائمة المتأخّرين. صرت أخيراً مثل الجميع.»

نظر إليّ. ابتسم. وأجاب: «يا صديقي العزيز، انظر مرّةً أخرى. إن لم ترني، فهذا لا يعني أنّني لست هناك.»

في تلك اللحظة فهمت شيئاً. الجنون الواعي ليس أن ترى ما لا وجود له. بل أن ترى ما هو موجودٌ فعلاً بينما ينظر الجميع إلى مكانٍ آخر.

الإفراط والرؤيا ليسا غرفتين. هما الغرفة نفسها، والباب الذي تستعمله هو ما يقرّر أيّ اسمٍ تمنحه إيّاها. ومن يسمّونها جنوناً واقفون في الخارج. هم لا يصفون الغرفة. هم يدافعون عن الصيغة. والصيغة لم تغفر لأحدٍ قطّ أنّه عاش خارجها.

Ferdinando